جينالوجيا النص الشعري العربي قبل الإسلام: مقدمات منهجيّة

• مصطفى رجوان*

● المقدمة:

حظيت قضيّة جينالوجيا الشـــعر العربي، أو أوليته، بعناية النقاد قديما وحديثاً، نظراً لأن الشعر الذي وصلنا على أنه البداية قد بلغ مبلغاً عظيماً من الفنية والجمالية. ولم يكد يخلو كتاب من كتب تاريخ الأدب العربي والكتب التي تناولت أدب ما قبل الإسلام بالدرس والتحليل من هذه القضية، سواء العربية منها أو كتب المستشرقين. ويهدف هذا البحث إلى وضع مقدمات منهجيـــة للبحث في هذه القضية، وتخليص هذا المبحث من بعض ما علق به من المقدمات الخاطئة، وتقديم بعض الاقتراحات، أملاً في أن يعيدَ توجيه البحث فيه.

١-تسمية الأولية

جاءت تســـمية الأوليّة نسبة إلى كلمة «أول»، وتشير التسمية إلى مرحلة زمنية من عمر الشـــعر العربي أو إلى نقطة انطلاقه. كما نجد عند النقاد المحدثين تسميات أخرى ترادف الأولية مثل: الجذور، الطفولة، النشـــأة، الأصول، المنابع، الأوليات، البدايات، الجينالوجيا ...، وســـيقودنا هذا البحث عن أولية الشعر العربي إلى البحث عن أولية التسمية نفسها في السياق العربي القديم؛ لقد كان الفرزدق همام بن غالب التميمي (ت٦٨ هـ) أول من أشار إلى أولية الشـــعر عن طريق شطره الشعري: «ومهلهل الشـــعراء ذاك الأوَّلُ». هذا الشطر سيؤدي دورا محوريا، إذ عليه ستتأسس النظرية العربية القديمة بخصوص أولية الشعر. اضطلاع الفرزدق بهذا الدور قد يبدو غريبا، نظرا لأنه شاعرٌ وليس ناقدا.
لكن بالمقابل قد قيل عنه: «لولا الفرزدق لضاع ثلث لغة العرب»، فهو عارف باللغة العربية وأشعارها وبأيام العرب وأخبارها.

---

* كاتب/ المغرب

يبدو من هنا أنه لعب دورا محوريا في تاريخ الشعر العربي، وها هو ذا يؤسس نظرية نقدية عربية قديمة بخصوص قضية الأولية انطلاقا من شطر بيت. وأيا تكن الخلفيات والدوافع التي جعلت الفرزدق يختار مهلهلا رجلا للأولية، فإن شـــطره هذا قد أثر على كل علماء العرب القدماء. وفيما بعد ستأتي مناقشة ريادة مهلهل مستفيضة دقيقة.

وكان أبو زيد القـــرشي (ت١٧٠ه) في الجمهرة ثاني من تحدث عن تلك الأوليّة تحت عنوان: «أول من قال الشعر»، فينسب الشعر الأول إلى آدم عليه الســـلام وإبليس فصيحا موزونـــا مقفى، ونجد صدى هذه الأبيـــات عند علماء بعده مثل الطبري. عديد من الباحثينَ أنكر على القرشي نســـبه أبيات من الشـــعر على بحر الوافر إلى آدم عليه الســـلام والملائكة وإبليس، لكنَّ هذه الدراســـة ستناقش هذه المسألة فيما يأتي بكلّ موضوعية. ثم الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥ ه) القائل: «أما الشعر، فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعـــة...»[١] ولعل مصطفى صادق الرافعي أول من فتح بابا من المحدثين تحت عنوان أولية الشعر العربي[٢] وذلك في كتابه «تاريخ آداب العـــرب» الذي ظهر ســـنة ١٩١١م، ثم دأب من بعده على هذه التســـمية، من مصر محمود شاكر والسباعي بيومي.

١-شواهد الأولية:

لا تكادُ تخلو الدراســـات التي خاضت في قضية أولية الشّعر العربي من شواهد شعرية ثلاثة يُدلّل بها على قدمه. الأول لإمرئ القيس:

(١)الجاحظ عثمان بن بحر، الحيوان، تح. عبد الســـلام هارون، مطبعة مصطفـــى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥، ج١، ص ٧٤.

(٢)مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ١١.

عُوجَا على الطّلل المحيل لعلّنا

نبكي الديارَ كمَا بكى ابن حذامِ

وذهب النقاد إلى أن ابن حذام شاعر سبق امرئ القيس إلى بـــكاء الديار. غـــير أنَّ الاهتمام بهذا الشـــاعر، هذا إن كانَ موجوداً أساساً، غيرُ مبرّر. فهناكَ شـــعراء قبل امرئ القيس نظموا قصائد بلغـــت الثلاثين بيتا، تحديداً في حرب البســـوس، ومنهم مهلهـــل بن ربيعة وزهير بن جناب الكلبي والجليلة. ونعلمُ كذلك أن امرئ القيس كان يتوكأ على شـــعر أبي دؤاد الإيادي. ولا نعلم على سبيل اليقين ما إذا كان ابن حذام شـــاعراً ســـنّ تقليد الوقوف على الطلل أم إنّـــه مجرّد طقس عاطفي أو وثني أخذه امرؤ القيس عنه. كما أنّ «شـــعر هذا الشـــاعر القديم، ابن خذام، لو وصل إلينا لما نفعنا بشيء كثير ولا قليل، لأنه سابق لامرئ القيس بمرحلة قصيرة، فشـــعره يشـــبه الشعر الجاهلي عموما. والذي نبتغيه هو الشـــعر الذي تطور عنه هذا الشـــعر الجاهلي، أي المطلوب شعر قيل أثناء تطور العربية الفصيحة، فتطورت عنه الأشـــعار التي قيلت بعربيتنا الفصيحة الحالية»[٣].

أما الشاهد الثاني فهو صدر مطلع معلقة عنترة العبسي:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّم؟

وذهبوا إلى أنَّ عنترة يعترف بوجود شعراء قبله، وهو يبحث بينهم عن مكان وعن معانٍ، لكن عنترةَ شـــاعرٌ متأخّرٌ ســـبقه مهلهل وعبيدٍ بن الأبرص وعلقمة وامرؤ القيس وطرفة وغيرهم عديد كثيرٌ. إذن فهذا الشاهد أيضاً لا يخدمنا في شيءٍ.

أما البيت الثالث فهو لكعب بن زهير:

ما أرانا نقـــولُ إلا معارا

ومعـــاداً من قولنا مكرورا

هـــذا البيت اقتلع من ســـياقه اقتلاعا ووظف في قضية أولية الشـــعر العربيّ، فأخذ كل النقاد

(٣)عادل جاســـم البياتي، دراســـات في الأدب الجاهلي: منطلقاتـــه العربيـــة وآفاقه الإنســـانية، ج١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦، ص ٣٠ و٣١.

والباحثـــين يكررونه، وهناك من ينســـبه إلى أبيه زهير بن أبي سُلمى. لقد أخرج الدارسون والنقاد هذا البيت من سياقه إخراجا، في حين أنهم لو عادوا إلى مســـاقه في القصيدة، لوجدوا أنه لا يتحدث عن الشعر مطلقاً:

إنّ عِرْسِي قد آذنتْني أخِيراً
لم تُعَرِّجْ ولم تُؤامِرْ أمِيرَا
أجهازا جاهزت لا عتبَ فيهِ
أمْ أرَادَتْ خِيانةً وفُجورَا
ما صلاحُ الزوجين عَاشَا جميعاً
بعد أن يصرم الكبيرُ الكبيرا
فاصبري مثلَ ما صبرتُ فإني
لا إخالُ الكريمَ إلاّ صَبُورَا
أيَّ حينٍ وقد دببتُ ودبَّتْ
ولَبِسْنا من بَعْدِ دَهْرٍ دُهُورَا
ما أرانا نقــولُ إلا معارا
ومعــاداً من قولنا مكرورا

إنّ الأبيـــات، كما قرأنـــا، مضمونها النزاع بين الرجل وزوجه فيقول لهـــا إننا دائما نكرّر الكلام نفسه كلما تشاجرنا، فالكلام تحصيلُ حاصل ولا فائدةَ منه...أوّل مَن استشـــهد بهذا البيت الأستاذ أحمد أمين في كتابه «فجر الإســـلام»[٤] الذي طبعَ سنة ١٩١٤م، وتبعه في ذلكَ أعلامٌ كبارٌ مثل محمد بهجة الأثري والزيات وشـــوقي ضيف وجواد علي وغيرهم عديد كثير.

٢-النظرية العربية القديمة

●الجاحظ: (ت ٢٥٥ هـ)

قال الجاحظ: «أما الشعر، فحديث الميلاد صغير السنّ، أول مَنْ نهج ســـبيلَهُ، وسهّل الطريقَ إليه امـــرؤ القيس بن حُجْر ومهلهـــل بن ربيعة [...] فإذا استظهرنا الشـــعر، وجدنا له – إلى أن جاء الإســـلام – خمســـين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فمائتي عام»[٥]، وقد انتقد هذا الرأي كثيرٌ من النقاد العرب المحدثين. ولنأخذ مثلا رأي محمد بهجة الأثري، قال: «لا ريب أن العرب قالت الشـــعر قديما... وإننا لا نريد أن نتخذ من فساد تلكم الروايات والمزاعم دليلا على أنها لم تقل الشعر ما وراء منتصف القرن الثاني قبل البعث، لا نريد ذلك وإنما نرتاب في تعيين زمن أوليته»[٦].

إنّ مفهوم الشعر لدى الطرفين ليس موحدا، بل يوهمنا كثيرا أنه موحد، وهذا هو أساس المشكلة. إنّ زمني نص الجاحظ وتأويله متباعدان كثيرا. هكـــذا فقراءتنا لنص الجاحظ قراءة آلية نمطية لم تســـتحضر الســـياق الثقافي ولم تتفاعل مع النص باعتباره تراثاً. بينما يروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله أن الشـــعر فُتـــح بامرئ القيس وختم بذي الرمة؛ يمكن تقبل أن الشـــعر بدأ مع امرئ القيس ولكن لا يمكن أن نقبل أن الشـــعر انتهى بذي الرمة، وبعد ذي الرمة بشـــار وأبو نواس وأبو تمام، وبعدهم شعراء كثيرون. إلا أن يكون معنى الشـــعر عند هذا الناقد مختلفا عن المعنى الحاصل في أذهاننا. إن شـــعرا بمفهومنا كان قبل مهلهل وامرئ القيس بكثير من الزمن، لكن الجاحـــظ لا يعترف به ويهملـــه، وتهمله المؤسســـة النقدية القديمـــة ولا يجمعه الرواة. ولننظر إلى الشـــعر الذي صرنا نعترف به اليوم ونطلق عليه شـــعرا، لننظر إلى شكله ومحتواه، إلى داله ومدلوله، إنـــه مختلف تماماً عن تصور الجاحظ لمفهوم الشعر.

لا بدَّ من طرح أسئلة مهمة مع أنها تبدو يسيرة، منها: ما مفهوم الشـــعر عند هؤلاء النقاد؟ من هم الشـــعراء لديهم؟ لماذا لم يصلنا شعر قبل شعراء الأولية؟ قال الجاحظ: أما الشـــعر... ولو عدنا إلى حد الشعر عندهم، وهو «قول موزون مقفى، يدل

(٤)أحمد أمين، فجر الإسلام، ج١: في الحياة العقلية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩١٤، ص ٧٠.

(٥)الحيوان، ص ٧٤.

(٦)محمد بهجة الأثري، المجمـــل في تاريخ الأدب العربي، ج١، مطبعة العراق، بغداد، ١٩٢٩، ص ٣٥.

على معنى»[٧]، لوجدنا أنهم لا يعدون شـــعرا دون مواصفات خاصة وعالية تتمثل في عمود الشـــعر، وأولها الوزن والتقفيـــة. إن ما يخرج عن هذا الحد، وربما أكثر منه صرامة، ليس شعرا وصاحبه ليس شـــاعرا. وعندما نرجع إلى تعريف القصيدة نجد أنها سبعة أبيات فما فوق، والأشعار التي سبقت الرواد لا تستحق، في نظرهم، أن تروى. زد عليه أن شعراً قبل حرب البسوس لم يكن يحمل ما يحفل به العربي، «إن الفرصة كانت مهيأة لضياع هذه الأوليات وعدم الالتفات لها في الجاهلية والإسلام، فهل تظن أن رواة القبائل وغيرهم، كان همهم أن يرووها ويحفظوها؟ وكيف يروونها وهي لا تحمل شيئا مما كانوا يهتمون به؟ بينما القصائد الطويلة تحمل في ثناياها أمجاد القبيلة وتســـجيل ملاحم انتصاراتها»[٨]. لا بد أن يكون الشـــعر الذي سبق ما وصلنا ضعيفا ذا مضامين ســـحرية لا ترتبط بهموم العربي قبل الإسلام. ونحن نقيم الدنيا من أجل أولية مجهولة، لو وصلنا منها شيء لما حفلنا به، لكن شدت أبصارنا تلك العتمة الباهرة. وهؤلاء النقاد لم يروا في الأشعار الأولى استحقاقا للرواية والجمع، ولا في من هم دون فحول الشعراء داعيا للذكر. إذن الشعر، أو ما يعترف به الجاحظ ومن تبعوه، لا يزيد عن العمر الذي حدده له.

نحن أصلا مرتبكون في تحديد مرادنا من «الأولية»، فهل نريد:

-أولية الشعر؟

-أولية الإطالة؟

-أولية تقصيد القصائد؟

-أولية القصيدة الغنائية؟

-أولية القصيدة الواقعية؟

-أولية الشعر البيتي؟

هكذا نحن أمام مجموعة من الأوليات ولسنا أمام أولية واحدة. عـــدم التحديد هذا هو الذي أوقعنا في مشـــاكل كثيرة، وأوقعنا في مشـــكلة التصادم مع المؤسســـة النقدية العربية القديمة، مع أنها مؤسســـة صارمة وعلى قدر كبير مـــن الكفاءة النقديـــة. فنجيب محمد البهبيتـــي يقول، وهو يتكلم عن الجاحظ: «الشـــعر أقدم مما يظن»[٩]. ويقول أيضا: «لا ريب أن القصيدة العربية أقدم ميلادا وأعرق نشـــأة مما صـــوره الجاحظ ومن ذهب مذهبه من علماء النقد ومؤرخي الأدب»[١٠]. ويتمادى البهبيتي في تســـفيه الرجل في موضع آخر حيث قال: «عُمْر القصيـــدة الغنائية موغل في الجاهليـــة، وقد حدده الجاحظ بمائتي ســـنة قبل الإســـلام، وهو الزمن الذي وجد فيه المهلهل، ونظم قصائده. إلا أن الجاحـــظ أطلق القول في خفة، وعمم القول في الشعر تعميما أوقع به مولد الشـــعر ابتداء في هذا العهد. وهي نظرة أو عثرة لا أدري كيف يقع فيها الرجـــل العالم العارف، الواسع الأفق والفكر»[١١].

إنَّ البهبيتـــي عندما علّقَ على رأي الجاحظ كان يستحضر في ذهنه كل الشعر، ومنه شعر الملاحم مثل ملحمة كلكامش وهو شـــعر مرسل منثور. والجاحظ كان واضحا فالشـــعر الذي يقصده هو الشـــعر الموزون المقفى أي الشعر البيتي، وليس شـــعر الســـطر. وكل النقاد العرب القدماء الذي تعرضوا لقضيـــة الأولية كانوا يتحدثون عن أولية الشـــعر البيتي، وطبيعي أنه بـــدأ بالمقطوعة ثم طول ثم قصـــدت القصائد. هكذا فهم «يتحدثون عـــن أولية القصيـــدة المقصدة لا أولية الشـــعر

(٧)قدامة بن جعفر، نقد الشـــعر، تح. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – مصر، مكتبـــة المثنّى – بغداد، ١٩٦٣، ص ١٥.

(٨)حســـين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشـــعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤، ص٧٠.

(٩)نجيـــب محمد البهبيتي، تاريخ الشـــعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص٣.

(١٠)المرجع نفسه، ص ٥.

(١١)نجيـــب محمد البهبيتي، الشـــعر العربي في محيطه التاريخي القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧، ص ٤٣٠.

العربي»[١٢]. فأعطوا الريادة في القصيدة الغنائية المطولة إلى مهلهل والقصيدة المقصدة إلى ابن أخته امرئ القيس، وهذان شاعران رائدان، أما أصحاب المقطعات فليسوا شعراء، لأن للشعر حده ومقوماته الفنية والجمالية، لكـــن بالمقابل هناك من حاول تكييف فهمـــه مع رأي الجاحظ وغيره من العلماء العرب القدماء، مثل المستشرق كارل نالينو الذي قال: «وخلاصة الأمر أن العلماء العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمســـين سنة تقريباً للشعر الجاهلي، لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشـــعار القديمة»[١٣]. وحسين عطوان الذي قال: «وأكبر الظـــن أن الجاحظ لم يـــرد أول قصيدة نظمها شـــاعر جاهلي تعود إلى مائتي عام قبل الإســـلام، بـــل أراد أن بدائع هذا الشعر وروائعه التي توافرت فيها التقاليد الفنية، لغوية أو موســـيقية أو تصويرية، هي التي نظفر بها في خلال هذين القرنين. وهو نفسه كان يحس ذلك»[١٤].

● ابن سلام الجمحي: (ت ٢٣١ هـ)

قال: «لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة»[١٥]، في حديث ابن ســـلام عن الأولية إشارات مهمة يجب الوقوف عندها مليا، وهو مجال خصب للتحليل والمســـاءلة واستنطاق الكلمـــات والعبارات المفاتيح، قـــال الناقد أوائل العرب، ولم يقل الشـــعراء الأوائل، بمعنى أنه لا يوجد أهل الاختصاص في قول الشعر. وعند بداية مرحلة البيت، وهو الشـــكل الأكثر تركيبا، لم يكن يســـتطيع الأوائل أن يقولوا إلا أبيـــات قليلة عند الحاجة، أي في موقف ما تعبيرا عما يشعرون به. وهذا راجع لعدة أسباب منها:

-أنهم ليسوا شعراء مختصين.

-أنهـــم لا يمتلكون النفس والقـــدرة على ارتجال أبيات كثيرة.

-أنهم لا يستطيعون اســـتيعاب القصيدة في ظل العملية الذهنية وعدم وجـــود التدوين الكتابي.

وهنا يفتخر امرؤ القيس:

أنا الشاعرُ المرهوبُ حَوْلِي تَوَابِعِي
من الجنّ تَروي ما أقُولُ وتعرفُ
إذا قلتُ أبياتاً جياداً حفظتُها
وذلك أني للقوافي مثقِّفُ

-أنهم ليسوا ذوي مشاريع قصائد طويلة.

ويضيف ابن ســـلام: «وإنمـــا قصّدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف. وذلك يدل على إســـقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع»[١٦].

ويبدو هنـــا أن العلماء العرب القدماء متفقون على جملة من الأمـــور والمصطلحات (مثل تقصيد القصائـــد) التي نـــكاد لا نعرفهـــا، ولا يكادون يختلفون في قضية الأولية. ويتفق هنا ابن سلام مع الجاحظ على عمر القصيدة العربية الغنائية. وإذا كانت ولادة القصيدة العربية قبل الإسلام في زمان عبد المطلب وهاشـــم بن عبد مناف فإن الروايات التي تنسب شعرا إلى عهد عاد وثمود وحمير وتبع فاسدة بكل تأكيد.

يتابع ابن سلام: «وقال امرؤ القيس:

عُوجا على الطّلَلِ المُحِيل لعلنا
نبكي الدّيارَ كما بكى ابن حذام

وهو رجل من طيء لم نســـمع شعره الذي بكى فيه، ولا شـــعراً غير هذا البيـــت الذي ذكره امرؤ القيس»[١٧]. ونســـتنتج من كلامه عن ابن حذام أنه يســـقطه من الأولية، لأنـــه لا يمتلك نصوصا

---

(١٢)محمود عبد الله الجادر، «الشاعر العربي قبل الإسلام وتحديات العصر»، مجلة المورد، العراق، ع٢، أبريل، ١٩٨٦، ص٦.

(١٣)كارل نالينـــو، تاريـــخ الآداب العربية: من الجاهلية حتى عصر بنـــي أمية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠، ص ٦٨.

(١٤)مقدمة القصيدة العربية، ص٦٨.

(١٥)محمد بن ســـلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ص ٣٥.

(١٦)المصدر نفسه.

(١٧)المصدر نفسه، ص ٣٧.

محفوظة، ويضيف: «وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع، المهلهل بـــن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل، قتلته بنو شيبان»[١٨]، يكاد اسم مهلهل يبزغ في كل الآراء العربية القديمة في قضية أولية الشعر. فنجد النقاد العرب القدماء يعطونه فضل السبق والريادة.

-فهل مهلهل فعلا هو رائد القصيدة قبل الإسلام؟

-ولماذا رأى فيه النقاد القدماء الريادة؟

-وما مظاهر ريادته؟

وكنا قد تحدثنا عن أن فكرة ريادة الشـــعر لم تـــأت من ناقد بل من شـــاعر، «إن فكرة أول من أطال الشعر ورققه، وهلهل نسجه جاءت في جميع المصادر من بيت قاله الفـــرزدق، فجرى العلماء والناس مجراه، ولا نعلم من أين جاء بها الفرزدق، وكيف وقعت له. يقول الفرزدق:

وَهَبَ القَصَائدَ لي النّوابغُ إذْ مَضَوْا
وَأبُو يَزِيدَ وَذو القُرُوحِ وَجَرْوَلُ
وَالفَحْلُ عَلقَمَةُ الذي كانَتْ لَهُ
حُلَلُ المُلُوكِ كَلامُهُ لا يُنْحَلُ
وَأخو بَني قَيْسٍ، وَهُنّ قَتَلْنَهُ
وَمُهَلْهِلُ الشّعَرَاءِ ذاكَ الأوّلُ[١٩]

(ورأي الفرزدق هذا أجاء عـــن وعي أم إنه فقط انجـــراف وراء القافية؟...الفرزدق شـــاعر كبير ومؤثر في تاريخ الشعر العربي، وهو وريث شرعي لفحول شعراء ما قبل الإسلام. لكن الفرزدق كان في حلف مع الأخطل التغلبي ضد جرير، فهل كان هذا الرأي دعما للأخطـــل ونكاية في جرير؟ وقد تردد اسم مهلهل في أبيات شعراء سبقوا الفرزدق. قال لبيد بن ربيعة العامري:

والشّاعِرُونَ النّاطِقونَ أراهُمُ
سلكوا سبيل مرقِّشٍ ومهلهلِ

وقال شاعر مخضرم آخر هو حارثة بن بدر الغذاني:

قَبَحَ الإلهُ الإلْفَ إلا مَا مَضَى
والشعر بعد مُرقشٍ ومهلهلِ
وأبي داودٍ أو عبيدٌ كلما
نطقُوا أصَابوا فيه فصّ المفصلِ

وفي العصر الإسلامي قال سراقة البارقي:

ولَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ القَرِيضِ طَرِيقَةً
أَعْيَتْ مَصَادِرُهَا قَرِينَ مُهَلْهَلِ
بَعْدَ امْرِئ القيسِ المنوه باسمه
أيَّام يهذي بالدَّخول فَحَومَل
وأبو دُوَادٍ كان شاعر أمة
أَفَلَتْ نجومُهُمُ ولَمَّا يَأْفَلِ

وهنا نجد أنفسنا أمام أبيات تشهد بريادة المهلهل، لكنها أبيات على البحر نفسه وعلى الروي والقافية نفسيهما، ما يدفعنا للارتياب في هذا الرأي، وجملة (وذكر الوقائع) مهمة، فالشـــعراء في هذه المرحلة المتطورة من حياة الشـــعر العربي «ليسوا عرافين غامضين، بل يســـجلون الوقائع ويســـتعينون بمواهبهـــم على تخليدها»[٢٠].وذكْـــرُ الوقائع هو سر من أسرار اعتناء العرب قبل الإســـلام بالشعر وروايته؛ «فهل تظن أن رواة القبائل وغيرهم، كان همهم أن يرووها ويحفظوهـــا؟ وكيف يروونها وهي لا تحمل شـــيئا مما كانوا يهتمون به؟ بينما القصائد الطويلـــة تحمل في ثناياها أمجاد القبيلة وتسجيل ملاحم انتصاراتها»[٢١].

جملـــة أخرى مهمة هي: «في قتـــل أخيه كليب وائل»؛ إن مهلهلاً صاحـــب أول خطوة فردية في نظم قصيدة ذات موضوع واقعي في قالب مطول، وهو رثاء أخيه كليـــب. وهذه المحاولة، أو التحول في تاريخ الشعر قبل الإسلام لم يأت بشكل عرضي طبيعـــي، وإنما جاء جراء صدمة قوية للشـــاعر والإنسان قبل الإسلام تتمثل في موت كليب أو وائل بن ربيعة التغلبي. إن الصدمة ممزوجة بالغضب والحزن ونـــار الثأر قد دفعـــت مهلهلا إلى نظم

(١٨)المصدر نفسه.

(١٩)مصطفى عبد الشـــافي الشـــوري، «أولية الشـــعر العربي»، مجلـــة مجمع اللغة العربيـــة، القاهرة، ج٦١، نوفمبر ١٩٨٧، ص ٩١.

(٢٠)ديفيد صمويل مرجيليوث، أصول الشعر العربي، ت. إبراهيم عوض، دار الفردوس، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٨.

(٢١)مقدمة القصيدة العربية، ص ٧٠.

قصيدة تذكر وقيعة مـــوت البطل كليب وتوثقها، قصيدة تليق برجل مثله لم يسبق لها مثيل يخلدها وتخلده طيلـــة الحقب. ولطالمـــا كانت الصدمة محركا للتحول والإبداع. نذكرُ مثلاً حملة نابوليون على مصر، ونكبة فلسطين التي ظهر معها الشعر الحر، كما يؤرخ النقاد المغاربة لولادة الشعر العربي الحديث في المغرب مع حرب الريف وانتصار محمد بن عبد الكريم الخطابي على الإسبان سنة ١٩٢٠م، ويضيف: «كان اســـم المهلهل عدياً، وإنما ســـمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه، ومن ذلك قول النابغة:

أتاك بقولٍ هَلهَلِ النّسجِ كاذِبٍ
ولم يأتِ بالحقِّ الذّي هوَ ناصعُ

وزعمت العرب أنه كان يدعي في شعره، ويتكثر في قوله بأكثر من فعله»[٢٢]، لقد انتقل كليب بالشعر من مرحلة المقطعات إلى مرحلة تطويل الشّـــعر، وهذا الانتقال ليس كميا شـــكليا فقط، فالعربي الذي عاش قبل الإســـلام قال المقطعات وكان يبث فيها واقعا مباشرا إذ الدافـــع للنظم هو الحاجة، ولكن مهلهلا في هذه المرحلـــة قد نزع إلى إضفاء لمسات شـــعرية خيالية مبالغة، وليس مطلوبا من الشـــاعر أن يكون أمينا، بقدر ما يجب أن يكون مبدعا، والشعراء يقولون مالا يفعلون. هنا أضيفَ عنصر التخييل، وحل محـــل المباشرة التي كانت تميز المقطعات، وقبلها كانَ غموض سجع الكهان. إنَّ ريادة مهلهل حســـب ابن سلام ترجع إلى ثلاثة أسباب:

١)الإطالة.
٢)الواقعية.
٣)التخييل.

وأخيرا قول ابن ســـلام في الســـياق نفسه: «كان امرؤ القيس بن حجـــر بعد مهلهل ومهلهل خاله وطرفة وعبيـــد وعمرو بن قمية والمتلمس في عصر واحـــد»[٢٣]، وتجمع بين هؤلاء الشـــعراء علاقات قرابـــة أو احتكاك، فمهلهل خـــال امرئ القيس، والمتلمس خال طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص من بني أســـد قتله الملك حُجر والد امرئ القيس، وكانت بينهما مساجلة شعرية، وعمرو بن قميئة أو عمرو الضائع رفيق امرئ القيس في رحلته إلى قيصر، لو صدقت الأخبار. إذن رواد القصيدة قبل الإسلام كانوا في زمن واحد، وأكثر منه كان حينئذ احتكاك بينهم وتقاسم للتجربة.

●ابن قتيبة الدينوري: (ت ٢٧٦ ﻫ)

قال: «لم يكن لأوائل الشـــعراء إلّا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة»[٢٤]، هذا هو نص ابن قتيبة في قضية أولية الشـــعر العربي. ويقرر فيه أن الشعر العربي قد ابتدأ بأبيات قليلة يقولها الرجل عنـــد الحاجة، وقدم بعده بعض المقطعات على أنها من قديم الشـــعر. ونلاحظ أنّ «ابن قتيبة قد تجنب الحديث عن تقصيد القصائد، كما أنه لم يشر إلى صفة الشعرية التي عادة ما تنعت الشاعر، وإنما قال: أبيات يقولهـــا الرجل لحاجة ما»[٢٥]. وقد روى ابن قتيبة هـــذه المقطعات التي قيلت في ظروف مختلفة، ليخبرنا أن الشعر قبل الإسلام ابتدأ بالمقطعات، وأن هذه هي بداية التطور التدريجي كما وكيفا. إلى أن تأتي بعدها مرحلة تطويل الشعر وتتبعه مرحلة تقصيد القصائد. وكان الإنسان قبل الإسلام يعبّر عن شعوره عند حدوث الحاجة، حسب مهارته وقدرته على نظم أبيـــات ذات وزن موحد وقافية وروي موحدين. ثم جاء الشعراء الرواد وهم شعراء مختصون في الشـــعر، فراحوا يعبرون عن هموم الإنسان الجاهلي نيابة عنه.

●عمر بن شبة: (٢٣٢ﻫ)

قال: «للشـــعر والشعراء أولٌ لا يُوقَفُ عليه وقد

(٢٢)طبقات فحول الشّعراء، ص ٣٨.
(٢٣)المصدر نفسه، ص ٣٩.
(٢٤)ابن قتيبة أبو عبد الله محمد بن مسلم، الشعر والشعراء، ج١، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧، ص ١٠٤.
(٢٥)باديس فوغالي، «أولية الشعر والنقد القديم»، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع ٣٩٨، ص١٠١.

اختلف في ذلك العلماء وادَّعـــت القبائلُ كلّ قبيلة لشـــاعرها أنه الأول ولم يدّعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يُسَمون ذلك شعرًا فادَّعت اليَمانية لامرئ القيس وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتَغْلِب لِمُهَلْهل وبكر لعمرو بن قَمِيئة والمرقِّش الأكبر وإياد لأبي دُؤَاد قال: وزعم بعضهم أن الأفوه الأوْدِي أقدمُ من هؤلاء وأنه أول من قَصَّد القصيد قال: وهؤلاء النفر المدَّعى لهم التقدم في الشعر متقاربون لعل أقدَمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها»[٢٦]، لا يقدم هذا النص إشارات جديدة. وعندما سمى الشـــعراء الأوائل، قال: «هـــؤلاء النفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون»، وهذا طبيعي، مثلما حصل في حركة الشعر الحر فالرواد كانوا في زمن واحـــد. وإذا كان ليس معروفا لدينا من كتب أول قصيدة من الشـــعر الحر: نـــازك الملائكة أم بدر شاكر السياب أم نزار قباني أم علي أحمد باكثير، وهم شعراء متزامنون، فكيف سنعرف أول شعراء ما قبل الإسلام؟ وابن شبة هنا يتحدث عن المرحلة الذهبية مرحلة تقصيد القصائد، ومفهوم الشعر يريد به الشـــعر الذي ظل معتمـــداً قرونا طويلة ومحميا من المؤسســـة النقدية. ومن الطبيعي أن تتعصب كل قبيلة لشاعرها، فالبحث عن أول من قالَ الشعر أو قصيدة ناضجة إنما ينبع من دوافع تعصبية، ولا يهم الباحث اليوم.

●الأصمعي: (ت ٢١٦ هـ)

قال الأصمعي: «أول مَنْ يُروَى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتًا من الشعر مهلهل ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ثم ضَمْرة رجل من بني كنانة والأضبط بن قريع قال: وكان بين هؤلاء وبين الإســـلام أربعمائة ســـنة وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير»[٢٧].... يركز الأصمعي على أولية القصيدة المطولة، ويعطي الريادة لمهلهل. وهو هنا لا يقـــدّم جديداً، غير أنه يذهـــب بعيداً في عمر الشـــعر العربي فيرجعه إلى أربعمائة سنة قبل الإسلام.

●ابن رشيق القيرواني: (ت ٤٦٣ هـ)

قال: «زعم الرواة أن الشـــعر كلّه إنّما كان رجزاً وقطعاً، وأنه إنما قُصّـــد على عهد عبد المطلب بن عبد مناف، وكان أول مَـــنْ قصّده مهلهل وامرؤ القيس، وبينهما وبينَ الإسلام مئة ونيّف وخمسون ســـنة»[٢٨]، قال الناقد إن الشـــعر كله كان رجزا وقطعا، فلم يقل إنه كان رجزا ثم قطعا؛ لأن هناك مـــن يعدّ الرجز نواة لتطـــور القصيدة وهو رأي ضعيف. وهنا يميز بين نوعين من الإنتاج الشعري الرجز وهو ذو وزن واحد ويكون غالبا أشـــطرا، والقطع وهي التي تطورت وطالت حتى أصبحت قصائد. وجعل زمان تقصيد القصائد على عهد عبد المطلب، فيحســـب فيجد بين الإسلام وعبد المطلب مائة ونيف وخمسين سنة، وهو بهذا يتبع رأي ابن سلام والجاحظ.

بالنسبة للرجز، يرى صلاح عبد الصبور أنه لم يكن «بداية الشـــعر العربي كما يزعم جرونباوم وبروكلمان»[٢٩]، ويرى أنه شعر شعبي. وقد تواجه القارئ مفارقة، بمجرد وجود تصنيفين للأدب قبل الإسلام بين شعبي ورســـمي، مع ما لديه من أن العرب حينئذ كانت تتكلم اللغة العربية الفصحى، لكـــن هذا التصنيف بالنســـبة للباحث ســـيحل مجموعة من المشاكل. والأدب الشعبي أدب يشارك فيه الجميع، ويصبح بعد ذلك ملكا للجميع، شعرا ونثرا وأمثالا وخرافات... أما الأدب الرســـمي فهو أدب صارم تطغـــى عليه القواعد والتقاليد الأدبية والرســـميات، وتدخل فيه الخطـــب والمناظرات والقصائد... إن الرجز شعر شعبي يجري على كل لســـان، العامة والشعراء، وهذا يرجع إلى أنه بحر

(٢٦)جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، ج٢، تح. محمد جاد المولى بك وآخرَين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٧٧.

(٢٧)المزهر في علوم اللغة، ص ٤٧٧.

(٢٨)الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج١، تح. النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٠٣.

(٢٩)صلاح عبد الصبور، «رأي في بدايات الشعر العربي»، مجلة الشعر، القاهرة، أبريل ١٩٦٥، ع ١٦، ص ٨٦.

سهل وتدخله زحافات وعلل كثيرة، ويستعمل تاما ومجزوءا، ومشطورا ومنهوكا. ومواضيعه مبتذلة كالتلبيات وحفر الآبار وترقيص الأطفال.

●المرزباني: (ت ٣٨٤ ﻫ)

يقـــول المرزباني في ترجمتـــه لعمرو بن قميئة: «وكان في عصر مهلهل بن ربيعة ويقول الشـــعر، وعمر حتى جاوز التســـعين [...] وتزعم بكر بن وائل أنه أول من قال الشعر وقصد القصيد وكان امرؤ القيس بن حجر اســـتصحبه لما شخص إلى قيصر يســـتمده على بني أســـد...»[٣٠]، المرزباني ناقد متأخر عن ابن ســـلام وابن قتيبة والجاحظ، وهنا يرى أن أول من قال الشـــعر وقصد القصيد هو عمـــرو الضائع، وحجته عـــلى ذلك أنه عندما مات في رحلته مع امرئ القيس إلى القسطنطينية كان شيخا تسعينيا بينما مات امرؤ القيس شابا، وهو الذي تنســـب له أولية الشـــعر العربي. وإذا كان امرؤ القيس ابن أخت مهلهل ســـيكون عمرو الضائع منافســـا قويا على هذه الأولية، لكن كونه معمرا ليـــسَ دليلا على ريادته. ويبقى هذا صراعا قبليا لنيل هذا الشرف فتزعم تغلب الريادة لمهلهل وبكر لعمرو الضائع وبنو أسد لعبيد بن الأبرص. ولكـــن إذا نظرنا إلى القضية مـــن منظور محايد وموضوعي ســـنجد أنه لا يهم من الأول، وسنجد أن الإطالة وتقصيـــد القصائد كانتا لجيل مهلهل، والتطوير كان لجيل امـــرئ القيس وفيه علقمة الفحـــل وعبيد بن الأبرص وعمـــرو الضائع. فلا تقدم هذه الرواية ولا تؤخر لأنها لم تقدم معطى جديدا عن تطور القصيدة الجاهلية واســـم عمرو الضائع لا يخرج عن جيل امرئ القيس الذي عرف القصيدة الجاهلية كما عرفناها.

وإذا تصفحنا ديوان عمرو بن قميئة لا نجد قصائد طوالا، مقارنة مع مهلهل أو امرئ القيس أو طرفة بن العبد. ولا نرى فيها ملامـــح تقصيد القصيد بجلاء. كمـــا أن البعد الزمنـــي للناقد من عصر التدوين يقلل من قيمة رأيه.

●أبو زيد القرشي: (ت: ١٧٠ ﻫ)

قال: «قال محمد: أخبرنا أبو عبد الله المفضل بن عبد الله المحبري قال: سألت أبي عن أول من قال الشعر، فأنشدني هذه الأبيات:

تَغَيّرَتِ البلادُ، ومَن علَيها
فَوَجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قَبِيْحُ
تغيّر كلُّ ذي لونٍ وطَعمٍ
وقلّ بَشاشَةُ الوَجهُ الصّبيحُ
وَجَاوَرَنا عَدوٌّ لَيْسَ يَفنى
لَعِينٌ لا يَمُوتُ فَنَسْتَرِيحُ
أَهابِلُ! إن قُتِلْتَ، فإنّ قلبي
عَليكَ اليَومَ مُكْتَئِبٌ قَرِيحُ

ثم سمعت جماعةً من أهل العلم يؤثرون أن قائلها أبونا آدم، عليه السلام، حين قتل ابنه قابيل هابيل؛ فالله أعلم أكان ذلك أم لا»[٣١]، لا نعرف لماذا سقط أبو زيد في هذه العثرة، من جهة هو يروي ما سمع، ومن جهة أخرى نرى أن الرجل ربما قال في نفسه إن آدم عليه الســـلام كان يتكلم العربية، فثمة من يؤمن بأن العربية هي اللغة التي تكلم بها آدم عليه السلام. لكن لا بد من تبيان شيء ذي أهمية، وهو لا ينفي صحة هذه الأبيات. وقد ننجح في معالجة هذا الأمر إذا وضعنا الأمور في سياقها. لا يمكن أن يكون آدم عليه الســـلام قد قال تلك الأبيات، فآدم عليه السلام نبي وليس شـــاعرا. ولا يمكن نظرا لتمام اللغة والعروض. لكن ما تفسير ذلك؟ إنّ هذا الشـــعر من المرجح أنه نظم لأغراض دينية، وهو حوار بين آدم عليه السلام وإبليس وربما طال هذا الحوار ولم يصلنا منه إلا القليل. إذن ماذا يسمى هذا الشـــعر الذي يرتكز على الحوار؟ إنه الشعر التمثيلي. صحيح لم تعرفه العرب، لكننا نلاحظ أن الأبيات في رواية أبي زيد القرشي كلها من الوافر ما

(٣٠)أبو عبيـــد الله محمد بن عمـــران المرزباني، معجم الشـــعراء، تح. فاروق اســـليم، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠١٩، ص ١٩ و٢٠.

(٣١)أبو زيـــد محمد بن أبي الخطـــاب القرشي، جمهرة أشـــعار العرب في الجاهلية والإســـلام، تـــح. علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣١ و٣٢.

يدل على أنها جاءت في سياق تمثيلي واحد هو قصة بداية الخلق. ولا نستبعد وجود شعر تمثيلي وشعر قصصي ملحمي عند العرب قبل الشـــعر الغنائي، لكنه ضاع لأسباب دينية أكثر من الأسباب الأخرى. ونجد نجيب محمد البهبيتي يدافع عن وجود شعر قصصي قبل الإسلام انطلاقاً من قصيدة موجودة في جمهرة أبي زيد القرشي[٣٢].

● تطور بنية القصيدة الجاهلية

(أ) قصيدة النثر قبل الإسلام

ســـنفترض هنا وجود قصيـــدة عربية منثورة؛ فوفق قاعدة الانتقال من البسيط إلى المركب، فأول قصيدة عربية أي بلغة عربية ليست هي القصيدة البيتية المركبة، بل على هيئة نثر مرسل.

-ولكن كيف تكون قصيدة وهي نثر، على أن كلام العرب في محدثاتهم كله نثر فصيح؟

نعتـــبر اليوم نصاً قصيدةً نثريـــة، على الأقل، إذا وُزع على شـــكل القصيدة، أي بنظام الأسطر المتفاوتـــة والتـــي لا يحدد آخرهـــا بقافية. إذن نتعرف على قصيدة النثر المعـــاصرة عبر التلقي البصري للشكل الشعري. ونعلم أن لقصيدة النثر خصائصها الصارمة وقواعدها، وهنا لا نتحدث إلا عن شـــكل بدائي ذي مقومات بسيطة جداً. ولكن كيف تكون قصيدة النثـــر الجاهلية قصيدة ذات شكل متميز والثقافة الجاهلية لا تعرف الكتابة ولا التلقي البصري فهي ثقافة شفهية بامتياز؟

يقول جواد علي: «وقد بدأ الشـــعر بداية متحررة فلم يكن الإنسان في بادئ أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية، وإنما كان يميـــز بينه وبين النثر بالنغم الذي يجعله فيه وبالنبـرات التي يخـرجها مخارج الغناء، ولهـذا تجد المقطوعات الشعرية القديمة التي وصلت إلينا مدونة في كتابات مختلف الشـــعوب لا تشبه الشعر المعروف، إذ فيه تحرر، وفيه اعتماد على الترنم والإنشاد وعلى فن الإلقاء، أما الاعتبارات الفنية المعروفة، فهي من عمل الشـــعراء المتأخرين الذين أحلوا الوزن محل الإلقـــاء، ووضعوا قواعد معينة في نظم الشعر. فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية، ولم تكن هناك قواف بالضرورة، حتى إنك لا تســـتطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها إلا بالإنشـــاد»[٣٣]. ومن ثمة، إذا كان تمييزنا اليوم لقصيدة النثر عبر التوزيع الشكلي، فهم كانوا يميزون الشـــعر عبر الإنشـــاد.، ويؤكد بن رشيق القيرواني هذا الطرح بقوله: «كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهتز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شـــعرا؛ لأنهم قد شعروا به، أي فطنوا»[٣٤]. ولا نعتقد أن ابن رشـــيق يتحدث عن النثر الفني حينما قال كان الكلام كله منثورا، فالكلام يقصد به النثر والشعر، وهذا الشـــعر كان كله منثورا، ومن الطبيعي أن يكون كذلك قبل نظام العروض والقافية العربي.

● (ب) قصيدة السطر/التفعيلة قبل الإسلام

سننطلق مجدّداً من افتراض أن البحور الصافية قد ظهـــرت قبل البحور المركبة. وســـننطلق من افتراض آخر هو وجـــود قصيدة ذات إيقاع كمي تعتمد نظام السطر وتنوع القافية قبل القصيدة البيتية. على أن الحفريات لن تســـاعدنا في قضية الأولية، لكن بالمقابل هناك مســـار آخر للبحث قد يمدنا بنصوص شـــعرية قديمة. هذا المســـار هو التنقيب في النصوص التي كتبت بنظام الفقرات؛ إن إعادة توزيعها ودراستها قد يوصلنا إلى بعض الاستنتاجات. وهذا نموذج سنقوم بدراسته، وهو قطعة كهانة للكاهنة زبـــراء تنذر بني رئام، عن أنباء ستقع، تقول:

واللوح الخافقْ

(٣٢)الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم، ص ٦٤٠ وما بعدها.

(٣٣)جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ساعدت بنشره جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣، ص ١٢٥ و١٢٦.

(٣٤)العمدة، ج١، ص ١٠.

والليل الغاسقْ
والصباح الشارقْ
والنجم الطارقْ
والمزن الوادقْ
إن شجر الوادي
ليأدو ختلا
ويحرق أنياباً عُصلا
وإن صخر الطود
لينذر ثُكلا
لا تجدون معه معلا
فوافقت قوماً أشارى
سكارى[٣٥]

لقـــد قمنا بإعادة توزيع النـــص المتعارف على أنه نص نثري، على الشكل الطبوغرافي للنصوص الشـــعرية المعاصرة. وبما أن هـــذا النص وصلنا شـــفويا وليس عن طريق الكتابـــة، فلماذا نلزم أنفســـنا بكتابته مرســـلا بدل أن نكتبه بسطور شعرية؟ وفق هذه المعادلة:

القصيدة النثرية المعـــاصرة | التلقي البصري = القصيدة النثرية ما قبل الجاهلية | الإنشاد

فالإنشـــاد في الثقافة الشـــفوية يوازي التوزيع الشـــكلي في الثقافة الكتابية. وإلا فلنكتب قصيدة (النثر) المعاصرة التي نســـمعها على شكل فقرة نثرية. ثم تخيل معـــي كيف كانت تؤدي الكاهنة هذه الكلمات، أكانت تنشدها وتتفاعل مع الإيقاع والمعنـــى، أم تحدثت مع متلقيها بشـــكل عادي؟ وغالبا كانوا يتكلمون لهجة قبيلتهم وأنشـــدتهم القصيدة بالعربية الفصحى.

نلاحظ أن هذه القطعة تتكون من ثلاث وحدات دلالية إيقاعية واضحة. وعلى أقل تقدير، فقد كانت قصيدة الســـطر قبل قصيدة الشطرين. وهناك دلائل على هذا، منها أن الرجز يســـتعمل مشطورا ومجزوءا ومنهوكا: والهزج أيضا يستعمل مشطورا (تفعيلتان)، ومنه قول امرئ القيس:

لِمَنْ زُحْلوقَةٌ زُلٌ
بهـــا العَيْنان تَنْهلُّ
ينادي الآخِرَ الأُلُّ
أَلا حُلُّوا أَلا حُلّو

ولا يمكن بأي حال أن يكون الشـــعر قد ابتدأ بالبيت لأن البيت بنية مركبـــة، ومرحلة لا بد أن تكون بعد الســـطر، فالبيت ســـطران متناظران والثاني مقفى. «وإذا كانت القصيدة الحالية تمثل واقعا متطورا، فإنها بالـــضرورة امتداد شرعي لواقع أســـبق منه، خرجت وتطورت عنه، وحملت كثيرا مـــن خصائصه وخصوصياتـــه. وإن عين الدارس المتفحص تســـتطيع أن تستكشف بعض هذا الواقع المندثـــر، لأن القصيدة المفقودة تركت بصماتها على جسد القصيدة الجاهلية الموجودة، كما تركت القصيدة العمودية (التراثية) أثرها على مظهر قصيدة الرواد في الشـــعر الحر (الحديث) وبالأخص في أعمال بدر شـــاكر الســـياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي...»[٣٦].

●(ج)قصيدة البيت الواحد

رأى نقـــاد عرب قدامى أن الشـــعر العربي بدأ بالمقطعات التي تتكون من أكثر من بيت حتى عدد مختلف عليه، ثم طوّل الشعر، وقصّدت القصائد. وإذا اعتمدنا مبدأ الانتقـــال من الأقل نحو الأكثر والبسيط نحو المركب، وجدنا أن الأقل من المقطوعة والسابق عنها هو البيت الواحد، يرى خليفة محمد التليسي أن «الأصل في الشـــعر العربي هو البيت الواحـــد»[٣٧]. وهذه إضافة جديـــدة من التليسي يقدم لنا بها مرحلة سابقة عن المقطعات. يضيف: «وعندما كان الشاعر العربي القديم، يرسل البيت الواحد، ليعبر عن لحظته الشعرية، لم يكن يواجه

(٣٥)أبو علي القالي البغدادي، الأمالي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٦١.

(٣٦)عادل جاسم البياتي، مرجع مذكور، ص ٥٢.

(٣٧)خليفـــة محمد التليسي، قصيدة البيـــت الواحد، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص ٧.

أية مشـــكلة تعبيرية. فقد كان البيت الواحد، يعبر عن حاجته، ويســـتوعب اللحظة الشـــعرية التي يعانيها بكل أبعادها»[٣٨].

لا شـــك أن للبيت مركزية كبرى في النقد العربي القديـــم، فبيت واحـــد بإمكانـــه أن يرفع قيمة القصيدة، أو أن يحط منهـــا. ونحن نقرأ في كتب التراث أخبارا عن هذا لأمـــر. فقد «ظل البيت هو المحور الرئيسي في القصيدة، وظل الذوق النقدي، يرجع في أحكامه القائمة على المقارنة والموازنة، إلى هذا البيت الواحد... فالمفاضلة فيما بين الشـــعراء في القديم، إنما اعتمدت على البيت الواحد»[٣٩]. ثم جاء بعد البيت بيت آخر عن طريق الإجازة، فولدت المقطعات، وجاء بعدهما أبيات أخرى فـ «جاءت القصيدة، وجاءت معها مشـــكلاتها التي لم يكن يعانيها الشاعر الأول، شاعر الفطرة والطبع»[٤٠].

إن البيت بنية متطورة ومركبة وليســـت المبتدأ، ونحن لـــم نعرف أصل الشـــعر العربي إلا أبياتا قائمة على التساوي. ولكن هناك سؤال مهم: كيف تتحقـــق القافية في ظل وجود بيـــت واحد؟ هذا يضعـــف نوعا ما رأي التليسي. فلا بد في البيت من قافيتين على الأقـــل، وإلا فلا وجود للقافية في بيت واحد، ولكن من أين جاءت فلســـفة البيت؟ يمكن تقديم مجموعة من التفسيرات، لكنها غير حاسمة وإنما تقدم تصورا فقط. يرى أدونيس أن القصيد أو البيت «هـــو اكتمال التطـــور الإيقاعي، وهو شطران متوازنان، موزونان، حلا محل سجعتين متوازنتين»[٤١]. ويلمح جواد علي إلى أن فكرة البيت مستوردة من التوراة[٤٢].

لكن سنقدم تفسيراً ينزع إلى العلمية وينطلق من المورفولوجيا أو علم تشكل الأحياء، باعتبار البيت شكلا، وباعتبار أن الإنســـان العربي القديم كان يعيش على مقربة من الطبيعة ومتعلقاً بكائناتها الحية وواصفاً لها في قصائده. فإذا اعتبرنا النص كائنا حيّا فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام من التقابل: التقابل القطري(الجانبي) والتقابل الشـــعاعي وعدم التقابل. يقصـــد بالتقابل الجانبي إمكانية تقســـيم الحيوان إلى نصفين متساويين من خلال محور واحد مركزي. أما التقابل الشـــعاعي فهو انتظام الأجزاء المتشـــابهة حول محور وسطي. وهناك كائنات عديمة التناظر.

يصنّف الإنســـان ضمـــن حيوانـــات التقابل القطري، أي إنه باعتماد محور في وســـط جسمه ينقسم إلى جزأين متماثلين. لذلك كانتِ القصيدة العربية تنقســـم إلى صدر وعجز متســـاويين من حيث التفاعيل. ومع شـــعر الحداثة انتقل الشاعر إلى التقابـــل الشـــعاعي، أي إن في القصيدة نواةً افتراضية تنشـــطر إلى أسطر شعرية. في حين أننا في نصوص معاصرة، خاصة فيما يسمى «قصيدة النثر» لا نجد أي تناظرات فضلاً عن الوصول إلى تأويل منسجم للعناصر المختلفة.

● (د)المقطعات

المقطعة ليســـت فقط أبياتـــا قليلة، إنّها أبيات مباشرة فقيرة من الفنية والشـــعرية. وكما رأينا في قراءتنا للنصـــوص العربية القديمة التي عنيت بأولية الشـــعر العربي فإن النقاد كانوا يتكلمون عن المقطعة على أنها أبيات خالية من الشعرية، وما أدخلها في دائرة الشعر هما الوزن والقافية، فهي الحالة الصفر قبل انطلاق الحركة الشعرية الفنية في المطولات والقصائد المقصدة، ويرى ابن ســـلام الجمحـــي أنه «لم يكن لأوائل العرب من الشـــعر إلاّ الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قُصّدت القصائد، وطُوّل الشـــعر، على عهـــد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف»[٤٣]. لكن هذا التصور الذي أطلقه ابن سلام على أنه بداية للشعر العربي ككل، لا يتعدى أن يكون بداية للقصيدة ذات الشطرين المتوازيين المتناظرين. وهو مـــا اتفق عليه النقاد

(٣٨)المرجع نفسه.
(٣٩)المرجع نفسه.
(٤٠)المرجع نفسه.
(٤١)أدونيس علي أحمد ســـعيد، الشـــعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩، ص ١٠.
(٤٢)المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ص ١٢٩.
(٤٣)طبقات فحول الشعراء، ص ٣٥.

العرب القدماء وما دونه لا يعتبر شعرا.

وقد أرجع الدكتور مسعد بن عيد العطوي ظهور المقطعات إلى عدة أسباب، منها:

•أن تجارب الشعراء فطرية، وليست مركبة، تتمثل في أبيات قليلة محصـــورة في المكان والزمان، ولا تخضع لاستراتيجية بنائية وفنية.

•أن الارتجال يستدعي العجلة في القول وقصره.

•أن رواية المشافهة تدعو الشاعر إلى الاقتصار في القول.

•أن الميادين الأولى لعملية تكوين الشعر لا تستدعي الإطالة، كالتلبية الدينية والحداء[٤٤].

● (هـ)تطويل الشعر:

القصيدة مونوثيمية الشكل (Monothematic)

حين قال ابن ســـلام الجمحي: «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف» فقد أقر بوجود ثلاث مراحل شعرية، هي مرحلة المقطعات التي تحدثنا عنها في العنوان الســـابق، ومرحلتا: تطويل الشعر وتقصيد القصائد على التوالي. وجاءت أيضا عبارة (تقصيد القصيد) على لسان ابن سلام الجمحي عن عمر بن شـــبة حين قال: «وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي من أقدم هؤلاء، وأنه أول من قصد القصيد.» وفي قول ابن رشـــيق: «وكان أول مَنْ قصّده (أي الشعر) مهلهل وامرؤ القيس».

عندما نقرأ النصـــوص النقدية العربية القديمة نجد عبارتي (طول الشـــعر) و(قصدت القصائد) متجاورتين. فما المقصود بتقصيد الشـــعر؟ وهل معنـــى تقصيد الشـــعر هو نفســـه تطويله؟ في رأي محمود عبـــد الله الجـــادر أن «عبارتي ابن ســـلام (قصدت القصائد) و(طول الشعر) ليستا مترادفتـــين، والذي نذهب إليه أنـــه عنى بتقصيد القصائد إرساء الصيغ المبتكرة للرسوم الفنية التي غدت فيما بعد تقاليدَ شبه مستقرة للقصيدة ذات الموضوعات المتعددة...

إن القدماء كانوا يميزون بين (القصيدة) المستوفية لرسوم الطلل والنسيب... الخ والشعر الذي يقال في حاجـــة (أي في موضوع واحد) قل عدد الأبيات أم كثر، فهم حين يتحدثون عـــن مرحلة قصيدة مهلهل وامرئ القيس يشيرون إلى مرحلة تطور حاسم نقل الشعر من الإطالة إلى مرحلة إرساء الرســـوم الفنية التي تؤدي في إطار القصيدة متعددة الموضوعـــات وذلك ما نرى عبارة ابن ســـلام (قصدت القصائد) أومأت إليه وإن لم تكن عنيت بتفاصيل»[٤٥]. ويؤكد هذا الطرح نص ابن قتيبة الذي قال في بدايته: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار...»[٤٦] فلم يقل مطول الشعر بل مقصد القصيد.

● (و)تقصيد القصائد:

القصيدة بولوثيمية الشكل(polothematic)

وهـــي القصيدة متعددة المواضيع، أو ما يعرف في النقد العربي القديم بتقصيد القصائد، ولكن من أين جـــاءت فكرة تعدد المواضيـــع؟ ولماذا جاءت القصائد على هذا النحو؟، ثمة آراء كثيرة بلا شك. على سبيل المثال: «يفترض بلاشيرBlachere أن قصائد ما قبل الإسلام قد تغيرت وتعدلت في أثناء نقل الرواة لها عـــلى وفق لنموذج القصيدة المنظم الذي تطور في العصور الإسلامية»[٤٧]. وهناك آراء أخرى لمستشرقين آخرين في بحث ياكوبي، غير أننا لا يمكن أن نطمئن إلى آراء المستشرقين، ولا يمكن اعتماد أحدها إلا بعد نظر طويل.

---

(٤٤)مســـعد بن عيـــد العطوي، المقطعات الشـــعرية في الجاهلية وصدر الإســـلام، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٣، ص ٣١ و٣٢.

(٤٥)محمود عبد الله الجـــادر، «ملامح من تطور صورة الرسوم التقليدية في القصيدة العربية قبل الإسلام»، مجلة المورد، العراق، ع٢، ١ أبريل ١٩٩٨، ص ٤.

(٤٦)ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٥.

(٤٧)ريناتـــا ياكوبي، «أصول شـــكل القصيدة»، ت. عبد القادر الرباعي، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ع٤، ١ سبتمبر ٢٠٠٠، ص ٢١٦.

إن فكرة تعـــدد الموضوعات في النص الواحد لا نجدهـــا في القصيدة الجاهلية فحســـب، وإنما في نصوص قديمة أخرى غـــير القصيدة. نجدها في المؤلفـــات العربية القديمة، في كتـــاب «الحيوان» للجاحظ على ســـبيل المثال. كذلك في سور القرآن الكريم الطوال. ويبدو أن عـــلى هذا النحو كانت طبيعة التأليـــف آنذاك، أو لنقل هـــذا ما فرضه التلقي. ويمكن أن نربط المسألة بالإطالة، فالشاعر كان يستهدف إدخال مجموعة من الأغراض حتى يجد هامشا لتطويل قصيدته. أما ابن قتيبة فيرى أن مقصد القصيد قد ابتـــدأ بذكر الديار وصدّر النســـيب لكي يميل إليه الأســـماع ويجذب إليه القلوب لأن النسيب قريبٌ منها، ثم بعد ذلك يصف الراحلة، ليصل بعد ذلـــك إلى غرضه الرئيس[٤٨]، لكن هناك فرضيـــة أخرى ذات حـــظ كبير من المعقوليـــة متعلّقة بالتقاليد الأدبيـــة. لقد ارتبط تقصيد القصائد أو القصيدة البولوثيمية متعددة المواضيع بامرئ القيس، عبر معلّقته. والعائد إلى ديوانه، ســـيلاحظ أن أغلب أبيات معلّقته مأخوذة من قصائده ومقطعاته السابقة مع وجود بعض التعديلات لتتكيف مع إيقاع المعلقة. لقد أعدّ امرؤ القيس هذه القصيدة، لتختزل تجربته الشـــعرية والوجودية، بعد اغتيال أبيـــه ملك كندة وتحمله للمســـؤولية وتخلّيه عن حياة التيـــه والمجون. فهي عصارة تجربته الفنية الشـــعرية حاول فيها اســـتغلال أهم التقنيات الشعرية، وأن يودع فيها أهم تجاربه الحياتية الخاصة. إن موضوع المعلقة، أو بنيته الكلية، يمكن اختصاره في كلمة الذكريات: حنينه لصويحباته ومغامراته معهن، الركوب على الفرس، الصيد، وصـــف الليل ولوحة المطر. وإذا نظرنا إلى معلقة طرفة بن العبد نجده يســـير على خطى امرئ القيس، كأنما يتحداه ليثبت وجوده. هي الأخرى تبتدئ بوصف رحيل محبوبته خولة عن الديار، وركب الناقة ووصفها، ووصف مجلس الغناء والسكر الذي وصل إليه، وعندما تمكن منه الشرب أخذ يبث شكواه وألمه لظلم العشيرة حتى إذا استفاقَ من سُكره أخذ يرسل جواهر في الحكمة. ما نود قوله باختصار، أن تقصيد القصائد ما هو إلا تقليد أدبي أول من سنه امرؤ القيس ولا نجده في قصائد كثيرة له، فاستحســـنه الشعراء وساروا عليه زمنا طويلاً.

(٤٨)ابن قتيبة، المرجع السابق.

● خلاصة عامة:

انصبت عناية هذا البحـــث على تقديم مقدمات منهجيـــة للبحث في أولية الشـــعر العربي، فضلاً عن تصحيح المقدمات الخاطئة. لقد حاول قراءة نصـــوص النظرية العربيـــة القديمة بخصوص الأولية قراءة متأنية موضوعية. كما اقترح مراحل لتطور بنية القصيدة العربية قبل الإسلام، وهي: النثر، السطور المتوازنة، البيت، المقطعة، القصيدة المطولة، القصيدة، المقصدة. ومن خلاله نطمح إلى إعادة تصحيح مسارات البحث، وتوجيهه، آملين في أن تجد الاقتراحات بخصوص أولية بنية القصيدة العربية صدى لدى المهتمـــين بهذا المبحث ضمن تاريخ الأدب العربي.

● المصادر والمراجع

-ابن جعفر قدامة، نقد الشعر، تح. كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – مصر، مكتبة المثنّى – بغداد، ١٩٦٣م.

-ابن قتيبة أبو عبد الله محمد بن مسلم، الشعر والشعراء، ج١، تح. أحمد محمد شـــاكر، دار المعارف، القاهرة، ط٢، م١٩٧٧.

-الأثري محمد بهجة، المجمل في تاريخ الأدب العربي، ج١، مطبعة العراق، بغداد، ١٩٢٩م.

-أدونيس علي أحمد ســـعيد، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.

-أمين أحمد، فجر الإســـلام، ج١: في الحياة العقلية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩١٤.

-البهبيتي نجيب محمد، الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م.

-البهبيتي نجيب محمد، تاريخ الشـــعر العربي حتى آخر القرن الثالـــث الهجري، دار الكتـــاب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.

-البياتي عادل جاسم، دراسات في الأدب الجاهلي: منطلقاته العربية وآفاقه الإنســـانية، ج١، دار النشر المغربية، الدار

البيضاء، ط١، ١٩٨٦م.
-التليسي خليفة محمد، قصيدة البيت الواحد، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١.
-الجاحظ عثمان بن بحر، الحيوان، ج١، تح. عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
-الجادر محمود عبد الله، «الشاعر العربي قبل الإسلام وتحديات العصر»، مجلة المورد، العراق، ع٢، أبريل، ١٩٨٦م.
-الجادر محمود عبد الله، «ملامح من تطور صورة الرسوم التقليدية في القصيدة العربية قبل الإسلام»، مجلة المورد، العراق، ع٢، ١ أبريل ١٩٩٨م.
-الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
-حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤م.
-الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
-السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، ج٢، تح. محمد جاد المولى بك وآخرَين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦م.
-الشوري مصطفى عبد الشافي، «أولية الشعر العربي»، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج٦١، نوفمبر ١٩٨٧م.
-عبد الصبور صلاح، «رأي في بدايات الشعر العربي»، مجلة الشعر، القاهرة، ع ١٦، أبريل ١٩٦٥م.
-العطوي مسعد بن عيد، المقطعات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٣م.
-علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٩، ساعدت بنشره جامعة بغداد، ط٢، ١٩٩٣م.
-فوغالي باديس، «أولية الشعر والنقد القديم»، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع ٣٩٨، يونيو ٢٠٠٤م.
-القالي البغدادي أبو علي، الأمالي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
-القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح. علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨١م.
-القيرواني الحسن بن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج١، تح. النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
-مرجيليوث ديفيد صمويل، أصول الشعر العربي، ت. إبراهيم عوض، دار الفردوس، بيروت، ٢٠٠٦م.
-المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تح. فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠١٩م.
-نالينو كارل، تاريخ الآداب العربية: من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠م.
-ياكوبي ريناتا، «أصول شكل القصيدة»، ت. عبد القادر الرباعي، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ع٤، ١ سبتمبر ٢٠٠٠ م.